

الكلمة الخبيثة.. رغبات تائهة



1- اللّغو(1):

ولكي يوفّر لنا القرآن وعياً علمياً للكلمة وقيمتها، راحَ يُحذّرنا ويتحدّث لنا عن أخطر استعمالات الكلمة الخبيثة الشاذّة وهو اللّغو. واللّغو: هو الكلام الفارغ الأجوف الذي لا فائدة فيه ولا معنى له غير الثرثرة والتعبير المنحرف عن أحاسيس ورغبات تائهة عابثة؛ لا تعرف وجهتها ولا تعبّر عن نفسها تعبيراً طبيعياً وسليماً، فيلجأ اللاغون - أو المصابون بمرض الكلمة هذا - إلى اللّغو والثرثرة تعويضاً عن الفشل وإشباعاً للإحساس بالفراغ، مستعيزين عن الحقيقة بالوهم، وعن الواقع والموضوع بالكلمة الفارغة الجوفاء. لذلك ترى القرآن الكريم يُنزّه الشخصيّة الإسلاميّة الملتزمة عن الإسفاف والسقوط في شرك هذه الهوّة الأخلاقية المُزرية، ويصف المؤمنين بالتعالى على اللّغو والابتعاد عن هذا الحضيض، فيقول:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ) (المؤمنون/ 1-3).

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا) (الفرقان/

(وَإِذَا سَمِعْتُمْ اللَّغْوَ أَعْرِضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) (القصص/ 55).

فالشخصية الإسلامية الملتزمة ليس في قاموسها لغة للفراغ والثرثرة، ولا من سلوكها اللجوء إلى اللغو والعَبَث بالكلمة.

والإنسان المؤمن - كما يصفه القرآن - ليس هو الذي لا يمارس اللغو والاستعمال العاثر للكلمة وحسب، بل وهو البعيد عن اللغو المتعالٍ عليه؛ الذي لا يستمع إليه ولا يتأثر به، لذلك يتحدث عنه القرآن فيقول:

(عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ).

(وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا).

(وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ).

فعالَم الكلمة في عُرف الإنسان المؤمن عالَم يوازي بامتداده وعدد مفرداته عالَم الحقيقة ويُعبّر عنه وينطق بلسانها؛ فلكل كلمةٍ في حسابه معناها وهدفها ودلالاتها، ولا مكان للكلمة الفارغة الجوفاء في تفكيره أو فمه.

2- الزُّور:

وفي موضع آخر يُحذّر القرآن الكريم من استعمالٍ شاذٍّ ومنحرفٍ آخر للكلمة، ويقرنه برجس الوثنيّة؛ وهو قول الزُّور، قول الباطل؛ القول المائل عن الحق، المنحرف عن الحقيقة؛ فيقول:

(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ) (الحج/ 30).

فالإسلام جاد لإحقاق الحقّ وحفظه، والمزورّ رون مُزيّفون للحقيقة يستهدفون طمس معالمها والانتقال بالحقّ إلى غير موضعها؛ خلافاً لمنطق الوجود وقانون الشرع والأخلاق؛ لذلك كان الزُّور قرين الشُّرك في قوله تعالى: (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ)؛ لأنّ كلا العاملين افتراء على الحقّ ونصرة للباطل وتضليل للإنسانيّة، ولذلك أيضاً أثنى القرآن على المؤمنين الذين لا ينطقون بكلمة الزُّور ولا يميلون عن الحقّ ولا يستعملون الكلمة كأداة لتزوير الحقيقة وإضاعة الحقوق: (وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا).

3- البُهتان(2):

ويستمرّ القرآن الكريم في الدعوة إلى تنزيه الكلمة من الشذوذ والانحراف وحماية المجتمع والأفراد من أخطارها، ويؤكد د خطورة الكلمة الشاذّة وعمق أثرها السيِّئ الهدّام في سلوك الإنسان وعلاقاته، فتراه يحمل مرّةً أخرى على لون آخر من ألوان الانحراف والاستعمال التخريبي للكلمة، وهو البُهتان.

هذه المفارقة الأخلاقية التي تختفي خلفها دوافع الكراهية والانتقام، والمحاولة التي تكمن فيها إرادة الإسقاط والتخلص من الآخرين بإشاعة التُّهم والأضاليل ضدَّهم وتلوّث سمعتهم والطعن بكرامتهم وهزُّ كيانهم الاجتماعي وإسقاطهم بتلفيق الأكاذيب والطعون وتشويه صورة وجودهم في أذهان الآخرين وأوساطهم، ودسَّها على ألسنة المُغفَّلين والجُهلّ؛ الذين يتلقون الإشاعة ويتناقلون الأنباء بلا وعي ولا علم ولا مناقشة؛ فمن أجل الحفاظ على كرامة ضحايا البُهتان والإشاعات والأضاليل وحماية الأفراد والجماعات من ألسنة السُّوء ووقايتهم من أن يكونوا ضحايا الانحراف النفسي والأخلاقي الذي تعاني منه فئة شاذّة ومعرضة في المجتمع، ومن أجل أن يلفت القرآن نظر هذه الفئة المعقّدة من الناس ويكشف طويتها الخبيثة ويفضح مقاصدها التخريبية، ليعرِّبها أمام الرأي العام - المتأثّر بها والمتفاعل مع تيار الإشاعة - راح يتحدث عن خطورة هذه الظاهرة، ويُفسّر آثارها السيِّئة الهدّامة بقوله:

(إِذْ تَلَاقَوْا وَنَهَىٰ بِأَلسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهَوًى عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهِ هَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَيُذِيرُ النَّاسَ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ السَّادِّينَ يُحَدِّثُونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (النور/ 19-15).

فالقرآن يصف لنا في هذا النص الحكيم الدوافع الإنسانية لإشاعة الفاحشة بين المؤمنين، ويؤكد أنّ هناك أعداء ومخرّبين في المجتمع الإسلامي هم المبهتون الذين يحبّون أن تشيع الفاحشة في المؤمنين، فيخترعون التُّهم ويصنعون الأكاذيب والإشاعات الباطلة ضدَّ المؤمنين؛ لتشويه سمعتهم وهدم مكانتهم؛ لذلك قام القرآن بالتنبيه على الخطر والتحذير من هذا الطابور المتخفّّي من المخرّبين، ومع هذا فإنّ الإسلام لم يكتفِ بالتوعية والتوجيه والتربية والوعيد بالعقاب والمسؤولية يوم الجزاء، بل وشرّع عقوبة قانونية على هذه الجناية الأخلاقية التي تستهدف النّيل من كرامة الأفراد والعمل على إسقاطهم وشلّ وجودهم الاجتماعي، وألزم الدولة الإسلامية بتطبيقها ومعاقبة الجُناة وفق نصّها.

4- السُّخْرية، اللّامز، التنابز، التجسّس، الغيبة:

وهذه مجموعة أخرى من المواقف والظواهر الأخلاقية الشاذّة التي تتحمّل الكلمة مسؤولية التعبير عنها والمساهمة في تحمّل أوزارها؛ يُسجّل لها لنا القرآن بنصٍّ توجيهي يستهدف تربية النفس واللبّسان وتعريف الإنسان بقيم الحياة ومقاييسها:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُوا قَوْمٍ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا

أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللُّقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (الحجرات/ 11-12).

(وَيَلُ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) (الهمزة/ 1).

فالقرآن بنهيه للمؤمنين عن أن يعيب بعضهم بعضاً أو يطعن فيه أو يغتابه أو يتابع عيوبه فيكشف الخفي من أمره ليزيحه بين الناس للفضيحة والإهانة، إنَّما يريد أن يُرَبِّي الصابط الأخلاقي للكلمة ويحفظ علاقات الأفراد والجماعات بمستوى من حُسْن العلاقة وقوَّة الرابطة وتركيز الثَّقة والإحساس بالكرامة والأخوَّة الإنسانية ما يشيِّد قواعد المجتمع الرِّصين ويُرَبِّي الشخصية المستقيمة، ويقتلع الخلفيات النفسية والأخلاقية المريضة للكلمة، فالمُغتَاب والمتجسِّس (الذي يُتَابَع عيوب الآخرين ويعمل على نشرها) والذي يهز الناس ويلمزهم - أي الذين يطعن بهم وينسب العيوب إليهم - شخصية هزيلة تعاني من مرض الإحساس بالنقص والحقد على الآخرين، وتحاول أن تهدم كيانهم ووجودهم الإجتماعي في محاولةٍ منها لإسقاط إحساسها الذاتي بالنقص عن طريق الإعلان عن عيوب الآخرين لإخفاء وتغطية عيوبها ومواقع سقوطها، وللإنتقام من الشخصيات الأخرى - وخصوصاً التي تشعر بتفوّقها عليها - وتخشى نموّها وتعظم وجودها الإجتماعي.

والسخرية والإستهزاء والتنابز (التنازع أن يدعو بعض الناس بعضاً بقلبٍ يكرهه وينفر منه) كلاهما مفارقات تستعمل فيها الكلمة للإهانة والخطِّ من قيمة الآخرين والانتقاص منهم بدافع الاستعلاء والتكبر، أو التفاهة وعدم الاكتراث بما يُقال ويُلقي من القول.

وإنَّ مجتمعاً تتحرَّك فيه الكلمة هذه الحركة الهدامة للنيل من كرامات الناس وأغراضهم وسمعتهم، لمجتمع يتآكل أفرادَه، وتتساقط شخصياته في هاوية التفاهة والإهانة والإحتقار.

وإنَّ مجتمعاً يُرَبِّي وينتج مثل هذه الشخصيات الهزيلة لهوَّ مجتمِع مريض ومنحلٍّ؛ يتداعى نحو السقوط والغياب؛ لذا نشاهد القرآن يعمد إلى اقتلاع الدوافع المرضية للكلمة الخبيثة ويعمل على هدم أبنيتها السيِّئة المخزية، لتنظيف المجتمع وصيانتَه من هذه الطواهر العابثة الهدامة التي تحمل الكلمة معولها، ويطلق اللسان شررها.

5- زخرف القول (الكلمة الخادعة):

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلْنَاهُ فذَرْنَاهُمْ وَمَا يَفْقَهُونَ * وَلَئِن مَّهَغَى إِلَيْهِمْ أَفْئِدَةٌ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

وَلَيْسَ رُضْوَاهُ وَلَيْسَ قَدْرُ فُؤَادِ مَا هُمْ مُقَدَّرُونَ (الأنعام / 112-113).

في هاتين الآيتين يتحدث القرآن عن أخطر مُنْزَلَقٍ تهوي به الكلمة، ويتداعى الحرف في هاويته السحيقة، وهو التضليل والخداع والتمويه وقلب الحقائق وتشويه الحقيقة؛ عن طريق تصنيع الكلمة وزخرفة القول والدخول إلى المخاطب من نقطة الضعف والاستغلال؛ لإغرائه والإيقاع به، والإحياء له بسلامة الفكرة، وصحة المفهوم المزيّف الذي تحمله هذه الكلمة الخبيثة بين جنبيها.

ولكم تهاوت أُمم وشعوب وأجيال، وتساقطت في هاوية الضلال والانحراف والفساد الأخلاقي والعقائدي والاجتماعي بسبب هذه الكلمة المزخرفة الخدّاعة التي يرقص السّدج والجهّال على نغم إيقاعها ويفتنون بسماعها وأناقة ظاهرها.

ولكم عانى الإنسان من أولئك الشياطين مُنْذُاع الكلمة الضالّة المنحرفة التي قادت البشرية إلى هاوية الضلال والانحراف؛ فلقد كان لهذه الكلمة الهدّامة في كل عصر وجيل، أثرها ودورها التخريبي في حياة الإنسان؛ إلا أن البشرية لم تشهد في مرحلة من مراحل حياتها، وضعاً كان فيه للكلمة خُبراء ومتفلسفون، وأجهزة ومؤسّسات، كعصرنا الحاضر هذا..

هذا العصر الذي اتخذت فيه الكلمة الخبيثة المُخْزِية صيغة الفلسفة والنظرية والمبدأ الذي يعتنقه الأتباع ويدافعون عنه ويناقدون له؛ لذا كان الإنسان مع هذه التبعيّة العمياء بحاجة إلى توعية موجّهة مخطّطة، تكشف له زيف هذه المبادئ والنظريّات والفلسفات، وتُعمّق وعيه وحسّه النقدي قبل الإستجابة والوقوع تحت تأثير الكلمة الخدّاعة المُغرّية.

ولكم كان القرآن دقيقاً وهو يحدّثنا في الآية السابقة بترابط دقيق مُتَقَنَ عن: (زُخْرُفُ الْقَوْلِ، الغرور، الإحياء، الإصغاء الإقتراف)، ليؤكد أنّ كل تلك المعاني تُشكّل موضوعيّة مترابطة ومتلازمة العلاقة والتأثير في عالم الكلمة.

فالقرآن يربط هنا بين هندسة الكلمة وبناء الفكرة والنظرية والفلسفة التي يستعملها المُضِلّ فيخدع بها الذين لا يملكون وعياً ولا عقيدة ولا مبدأً سليماً في الحياة، يوحى لهم بالرّضى والقبول والاستسلام ويخدعهم بهذه الصّيغة البنائية المزخرفة للنظريات والأفكار والمبادئ، فيؤمن بها المخدعون ثمّ يبنون سلوكهم وتفكيرهم وحضارتهم وكل أنشطة حياتهم على أساس هذه الأفكار والمبادئ التي خدعتم وغرّرت بهم، لذا تحدّث القرآن الكريم إلينا عن أعداء الأنبياء والرسالات والهدى وسمّاهم شياطين الأنس والجن لأنّهم يمارسون عملية إغواء الإنسان وتضليله عن طريق إقناعه بالكلمة المبطنّة التي تحمل في ظاهرها الحلاوة والعذوبة وتستبطن في طويتها العميقة السمّ والمرار والألم.

6- النّجوى الآثمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي هُوَ السَّعْدِي)

عندما يشعر الإنسان بأن أفكاره التي يريد نقلها وكلمته التي يريد أن يقولها لا تلقى قبولا لدى كل السامعين والمخاطبين بها، وعندما يحس بأنّه معزول ومرفوض من قِبَل الآخرين، أو عندما يشعر بأنّ الخطر يُهدّد كيانه من جرّاء إطلاق هذه الكلمة أو التصريح بالفكرة؛ يلجأ إلى أولئك الذين يشاركونه الرأي أو يتقبّلون منه الفكرة والكلمة، بعيداً عن أنظار الآخرين وتحت ستار العُزلة والسّريّة، ليخصّ من يستمعون مقالته ويصدّقون كلمته بالقول والفكرة؛ فيتناجى معهم (يُحدّثهم سرّاً ويُحدّثونه) حيث لا عين ترى ولا أُذن تسمع.

وهنا في مثل هذه اللقاءات والاجتماعات السرية المنفردة التي تتمّ بها النجوى؛ يتم التناجي، الحوار الخفي وتبادل الآراء، ويحصل الاتّفاق وتثبت الوصايا والقرارات.

والقرآن الكريم في عرضه وتحليله لطبيعة هذه الفئة المتخفّية التي تخشى الإعلان عن نفسها والتعبير عن أفكارها؛ يحاول أن يرشد هذه الفئة من الناس إلى أنّ هذه العزلة والإختفاء والتناجي والتلاقي بين الأفكار والاتفاق على القرارات والوصايا، فرصة ثمينة في حياة الإنسان، يجب أن لا تذهب هدرًا أو تضيع سدىً، فيصرف الإنسان جهوده ويضيّع وقته وإمكاناته البشرية والمادية من أجل الهدم والتخريب والعدوان، بل يجب أن يستغلّ كل ذلك ويستثمره في مجالات الخير والبناء. فإن استطاع أن يؤثّر بكلمته على أحد أو يوجّهه، فليكن ذلك التأثير والتوجيه ذا طبيعة إيجابية بنّاءة تزرع في نفسه الهدى وتضع قدمه على طريق الخير والأمان، لذلك جاء النهي عن التناجي بالإثم والعدوان والمعصية والتخريب، وثبت الأمر بالتناجي بالبرّ والتقوى والطاعة وفعل الخير، ليكون الإنسان أداة خير وبناء في سرّه وعَلَانِيَتِهِ وفي خَلْوَتِهِ وأمام مجتمعه بعيداً عن الذّفاق والتلوّن والرسّاء.

7- الأراجيف والإشاعات:

(لَتَنذِرَنَّهُ لَمَّا يَنْزَغُ إِلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ وَاللَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا) (الأحزاب/ 60).

الإشاعات والأراجيف والدعايات المضادّة، أخطر أسلحة العدو وأكثرها فتكاً وتخريباً في حياة الفرد والأُمّة. ففي وقت الأزمات السياسية والإقتصادية أو عند الحروب وحالات التوتر الاجتماعي، ينشط الخصوم والجواسيس وأجهزة الدعاية المضادّة لبثّ الإشاعات والأراجيف التي تستهدف تحطيم معنويّة الأُمّة وإثارة الخوف والقلق والشك والبلبلّة. وقد حدث مثل هذه الحرب الكلاميّة المخربّة بشكل حاد ومتكالب في مجتمع المدينة المنورة في بداية تكوين المجتمع والدولة الإسلامية في عهد الرسول الهادي محمد (ص)، إذ كان المنافقون بالإضافة إلى اليهود - كما هو شأنهم دوماً - يقومون بهذا الدور التخريبي في مجتمع المدينة المنورة الإسلامي.

ولقد كانت هذه الحرب الكلامية ضدّ الإسلام ورسوله العظيم، والتشكيك بقدرة المسلمين وإمكان انتصارهم،

ومحاولة النيل من معنوياتهم، وإشاعة القلق والفوضى في صفوفهم، خطّة خبيثة معادية دأب اليهود والمنافقون على التركيز عليها والاعتماد على مفعولها؛ لذلك هدّد القرآن الكريم طاغور المخرّب بين من مروّج الإشاعات والأباطيل والأراجيف بالعقاب والطرّد وتطهير المجتمع من وجودهم؛ لأنّهم أداة تخریب وإرباك في صفوف الأُمّة الإسلامية.

ومن الآية الآتية الذّكر، ومن آية أخرى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَدْبٍ فَتَدْبِرُوا عَنْهُ وَإِنَّ يُصِيبُكُمْ قَوْلٌ مِّمَّا يَرِجُّهُ هَالِكٌ فَتُصِيبُكُمْ عِلَافٌ مِّمَّا فَعَلْتُمْ زَادَ مِنْهُ (الحجرات/ 6).

يكتسب المجتمع الإسلامي وعياً وتحصيناً فكريّاً ونفسيّاً ضدّ الكلمة المخرّبة والنّجاء الكاذب الذي يقصد التضليل والتمويه على الرأى العام الإسلامي ومخادعته.

لذلك دعا المسلم إلى محاربة الإشاعات والأباطيل التي ينشرها خصوم الإسلام ضدّ رجاله وقادته وضدّ كيانه السياسي والإقتصادي والعسكري والعقائدي، وأمره بالتروّي والفحص عن كلّ شائعة والنّأكد من صحة كلّ نبأ يُذاع أو يُنشر قبل تصديقه وقبوله، وعدم التّأثر والرضوخ النفسي للشائعات والأراجيف. ويساهم هذان التحصينان - النفسي والفكري - مساهمة فعّالة في حماية المجتمع من التضليل والفوضى والإنكسار المعنوي، والحفاظ على الروح المعنوية وقوّة الإرادة والعزيمة لدى الأُمّة الإسلامية وقت الأزمات والأحداث والطوارئ، كما يساهمان في حماية العقيدة والمبادئ من التضليل والتشويه والدّس الذي يتعمّده كثير من أعداء الإسلام وخصومه.

8- الكذب:

والكذب أخطر أمراض الكلمة وأكثر استعمالاتها المنحرفة خطراً وتخيلاً في نفسية الفرد وحياة المجتمع.

فالكذب الذي تحمله الكلمة هو الإخبار المزيف عن الواقع، وإعطاء صورة للسماع تُخالف الحقيقة والواقع الموضوعي، لذلك فهي عمليّة هدم للحقيقة، ومحاولة تجهيل للسماع ومخادعته بتصوير الواقع بصورة تخالف الحقيقة، فالكاذب يريد أن يصنع عالماً في ذهن السامع يُخالف عالم الحقيقة والواقع، ولا شيء أخطر على الحياة من أن يبتعد الإنسان عن فهم الحقيقة أو يتعامل مع غير الأمر الواقع.

ويشددّ خطر هذه الكلمة كلّما كان موقعها الاجتماعي أبعد أثراً وأكثر تأثيراً في حياة الأفراد والجماعة، فالصحفي والعالم السياسي مثلاً هم أكثر تأثيراً في حياة الناس. لذا فإنّ السياسي عندما يكذب يخدع نفسه وأُمّته ويخونها ويضلّها ويقودها نحو هاوية مدمّرة سحيقة، والصحفي وناقل الأنباء الذي يتلقّى الناس منه عن طريق الصحافة ووكالات الأنباء وأجهزة بثّ الكلمة وتوزيعها يضلّل الناس عندما يحاول طمس الحقيقة أو اصطناع كذبة لقاء أجر معيّن وثمن سُحت حرام.

والعالم الذي يُحدّث ويروي الأحاديث والروايات عن رسول الله (ص) وعن أئمة المسلمين (ع)، فيدسّ

ويكذب أو يفتي فيضلّل الناس ويحرفهم عن وجهتهم الصحيحة؛ خدمة لحاكم جائر أو طمعاً في مالٍ زائل، إنّما يعمل على هدم الحياة وتكريس الظلم والفساد وحماية الباطل والضلّال. فكل هؤلاء وأمثالهم يُشكّلون خطراً على تفكير الناس وحياتهم أكثر من غيرهم، ويعملون على إبعاد الآخرين عن الأمر الواقع، ويعملون على تزييف الحقيقة وتضليل الناس. لذلك حارب الإسلام الكلمة الكاذبة وحمل على الكذب والافتراء ومَن لا يتورّعون عنه، وحثّ المسلمين على التأكد من شخصية القائل وفحص مقالته قبل التصديق والوثوق بوعده أو كلمته.

(إِنْ جَاءَكَ كُفْرٌ فَاسْرِقْ بِهِ نَدْبًا فَنَدْبِيّ نَدُّوا أَنْ تُصِيبُوا فَوَومًا بَرَجَهَالَةٍ
فَتَصُيبُوا عَلَى مَا وَعَدْتُمْ نَادِمِينَ) (الحجرات/ 6).

(.. فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِرِغَايَرِهِ عِلْمٍ
إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (الأنعام/ 144).

(يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ
وَيَحْسِبُونَ أَنَّ اللَّهَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * اسْتَخْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنزَلَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ
حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (المجادلة/ 18-19).

(انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)
(الأنعام/ 24).

(وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ
نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ
فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدِّدُ فَتَعْمَلُ الْغِيَرُ الَّذِينَ كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا
أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) (الأعراف/ 52-53).

فالقرآن الكريم باستعراضه هذا للكذب وأخطاره، يُنبِّهه على أخطر المردودات والآثار السلبية السيئة على شخصية الكاذب وعلى الأفراد والجماعة المكذوب عليهم، فيصف الكاذب: (بالظلم والتضليل وادّعاء الحُسنى والتفريط والفسوق وأنّه حلاف؛ كثير الحلف لإقناع الآخرين بصدق مقالته ورفع الشك الذي يتردّد عن نفسه وأنّه مخادع لنفسه يكذب عليها كما يكذب على غيره، ويقنعها بالكذب فهو خاسر لنفسه، بعيدٌ عن □).

فكلّ تلك الأخطار النفسية والاجتماعية، هي مردودات طبيعية للكذب وحصيلة حتمية للكلمة الكاذبة. لذلك وصف الكذّاب بالمنافق والظالم والضّال المضلّ، وأُضيفَ إلى حزب الشيطان. وقد تحدّثت السنة النبوية عن الكذب وأخطاره وحذّرت من وجوده وانتشاره، فقد جاء فيها:

"أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا فَاصْدِقُوا إِنَّ □ مع الصادقين، وجانّبوا الكذب فإنّه مجانب للإيمان" (3).

"إنَّ الكذب هو خَرَابُ الإيمان" (4).

"لا يجدُ عبدٌ طَعْمَ الإيمان حتى يترك الكذب هزله وجدّه" (5).

"ثلاث خصال من علامات المنافق: إذا حدّث كذب، وإذا ائتُمن خان، وإذا وعدَ أخلف" (6).

مسؤولية الكلمة

(إِذْ يَتَلَفَّصُ الْمُتَلَفِّصِينَ عَنْ الْيَمِينِ وَعَنْ الشَّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) (ق/ 17-18).

(إِنَّ زَنَا زَحْنٌ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) (يس/ 12).

المسؤولية والجزاء مبدأ أساسي في كل ما يصدر عن الإنسان من قول أو فعل أو قصد.

والكلمة هي أحد الآثار السلوكية التي تترتب عليها المسؤولية وتخضع للرقابة والحساب والجزاء، لأن الإسلام يريد من الإنسان المسلم أن يكون إنساناً ملتزماً يخضع قصده وقوله وفعله للالتزام والانضباط. فلا يطلق الكلمة إلا بعد أن يفكّر في معناها وآثارها ونتائجها، فهو مسؤولٌ عنها ومحاسبٌ عليها، ولا شيء في عالم الوجود يذهب هدراً أو يضيع هباءً، فعَلَامُ الغيوب يحصي على الإنسان قوله وفعله وقصده. والقضاء العادل يضع يوم الجزاء كلمته في ميزان الحساب، لذا فإنَّ الإنسان المؤمن الذي يشعر بالمسؤولية ويؤمن بالحساب والجزاء المرتب على الكلمة التي يُطلقها، يحاول بكلِّ جهوده وقدراته الإرادية أن ينقذ كلمته ويحمي نفسه من المسؤوليات والتبعات المترتبة عليها، وهو وحده قادر على أن يكتشف قيمة الكلمة ويُدرك أهميّتها ويحترم دلالتها؛ فليست الكلمة في عُرْفه لغواً ولا هو يُطلقها جزافاً، بل الكلمة عنده ذات أهمية ومسؤولية ودلالة، لذلك فهو إذا حدّث صدق، وإذا وعد وفى، وإذا قال شيئاً عملاً، وإذا تكلم قصد؛ فليست الكلمة عنده بعد ذلك إلا الصيغة اللفظية المعبّرة عن القصد، والإعلان المخلص عن قرار عمل داخلي. فلا كلمة عنده إلا بقصد، ولا قيمة للكلمة بلا عمل، فهو يقصد ما يقول، ويعمل أكثر ممّا يتكلّم، والكلمة إن لم تُترجم إلى عمل تفقد هيبتها، ويفقد صاحبها معها هيبة وقيمتها، ويتعرّض لغضب الله ومقته.

ولكَمْ كان تشديد القرآن عظيماً واستنكاره كبيراً لهذه الصفة المردولة في الإنسان؛ صفة الثرثرة واللاغو والهذيان، حينما خاطب المسلمين بلهجة الاستنكار والتوبيخ بقوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبِيرٌ مَقْذَفًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) (الصف/ 2-3).

كلّ ذلك لأنّنا تفقد الكلمة معناها، ولأنّنا يفصل المسلم بين القول والقصد والعمل، وكي لا يسمح لكلمته أن تنطلق بلا قصد أو هدف أو قرار صادق، فتكون عبارة ميّنة جوفاء وألفاظ عائمة، لا واقع لها ولا عمل يُجسّدُها؛ ليتحوّل الإنسان المسلم إلى إنسان عمل وعطاء وتأثير في هذه الحياة، وليطوّف كلمته

دوماً في مجال الخير والبناء، لتكون شجرة طيبة تُجنى ثمارها ويُسْتَظَلُّ بظلّاتها وينتفع الآخرون بخيرها وعطاؤها.

والحمد لله رب العالمين.

- الهامش:

- 1- اللّغو من الكلام: ما لا يُعتدُّ به، وهو الذي يورَد لا عن رؤية وفكر، فيجري مجرى اللّغا، وهو صوت العصافير ونحوها من الطيور، الراغب الاصفهاني/ معجم مفردات ألفاظ القرآن/ مادة لغا.
- 2- البُهتان: الكذب الذي يُحَيَّر ويُدْهَش سامعه لفظاعته.
- 3- النوري/ مستدرک الوسائل/ ج2/ ص84.
- 4- الكليني/ الكافي/ ج2/ ص239 عن الإمام الباقر (ع).
- 5- المصدر السابق/ ص340 عن الإمام عليّ (ع).
- 6- النوري/ مستدرک الوسائل/ ج2/ ص100.